نصوص مختارة فى علم النفس

سننشر تباعاً فى هذا الباب نصوصاً مختارة من مؤلفات كبار علماء النفس ، بحيث تتناول نصوص كل مجموعة موضوعاً واحداً من موضوعات علم النفس المختلفة .
وسنشير بعلامة * إلى المصطلحات المذكورة فى « باب التعريفات » .

لمحة فى تاريخ علم النفس (١)

كانت المسائل التى نطلق عليها اليوم اسم المسائل النفسانية — أو كان أهمها على الأقل — من الأمور التى تدخل فى نطاق التفكير الفلسفى . وفى مؤلفات كثير من الفلاسفة القدامى والمحدثين أمثلة كثيرة لذلك . ومن الخير أن نضيف إليها ما تحويه كتب الدين والأخلاق والتاريخ والأدب مما يقرب من ذلك . ورغم هذا فان علم النفس — باعتباره مجموعة منفردة من الدراسات لها اسم خاص (٢) — لا يرتد أصله إلا إلى عهد قريب نوعاً ما . ويمكن أن يرد إلى « كرستيان ولف » Wolff مؤلف « علم النفس التجريبى » (١٧٣٢) و « علم النفس العقلى » (١٧٣٤) . وبقى هذا الاسم بالغ الندرة خلال القرن الثامن عشر ، رغم كل المؤلفات التى نشرت فى ذلك العهد عن الفكر وخاصة عن تكوين الأفكار ؛ غير أن « كانت » Kant استخدم هذا الاسم ، الأمر الذى أجدى كثيراً فى انتشاره . وكثر استعماله فى فرنسا بفضل « مين دى بيران » Maine de Biran و « المدرسة الانتقائية » خاصة .

على أن علم النفس بقى وثيق الصلة بالفلسفة حتى أن « أوجست كونت » A. Comte فى رفضه التسليم بالفلسفة بقضها وقضيضها ، أنكر إمكان وجود علم خاص للنفس ، قائم بنفسه ، متميز عن علم الحياة وعلم الاجتماع .

أما تاريخ علم النفس فى القرن التاسع عشر فقد كانت تسيطر عليه فى الواقع نزعتان كانتا تتحالفان أحياناً وتتعارضان أحياناً أخرى وهما : ١ — جهاد علم النفس للانفصال عن الفلسفة والوصول إلى مرتبة « العلم الطبيعى » فكان هذا محاولة فى سبيل التحرر والاستقلال ، غير أنه كثيراً ما كان يختلط بها ميل إلى إخضاع علم النفس لعلم وظائف الأعضاء (لوتسه ، مودسلى ، فوندت ، Lotze. Maudsley, Wundt)

---

(١) André Lalande. La psychologie, ses divers objets et ses méthodes. *in* Nouveau Traité de Psychologie par Georges Dumas, T. I p. 367 — 369. Paris 1930. Alcan.
مترجم هذا النص الأستاذ إسحق رمزى

(٢) اتخذ جوكلنيوس Goclenius الأستاذ بجامعة ماربورج « علم النفس » عنواناً لأحد مؤلفاته (١٥٩٠)

وزيادة على ذلك فإنه لما كانت الفلسفة التي يراد التحرر منها هي على الغالب فلسفة تقليدية : إثنينية أو روحية ، فان هذه الحركة كثيراً ما أدت إلى أن تقوم البحوث النفسانية على فكرة وجدانية أو مادية عن العالم ، أي على شكل آخر من أشكال الفلسفة .

٢ — جهاد لحصول علم النفس على ميدان ومنهج ومبادىء لا تخرجه من مجموعة العلوم الفلسفية حسب ، بل لا تختلط بمنهج أي علم آخر أو مبادئه ، ولا تتضمن التسليم إلا بالفروض العامة للمنهج التجريبي أو التحليلي حتى تضعه — في إيجاز — بالنسبة إلى علم الحياة في نفس المرتبة التي يوضع فيها هذا العلم بالنسبة إلى علم الطبيعة ، ويوجد أوضح تعبير عن هذا في كتاب المنطق لجون ستوارت ميل J . S . Mill في الفصول الخاصة بالعلوم الإنسانية ، كما نجد ذلك الرأي أيضاً في المقدمة المشهورة لكتاب « ريبو » Ribot « علم النفس الإنجليزي المعاصر » (١٨٧٠) وفي كتاب « الذكاء » الذي ألفه « تين » Taine في العام نفسه ، وفي كثير من الكتب التي نشرت بعد ذلك . ونما « علم النفس المستقل على أشكال مختلفة منذ ذلك العهد بسرعة فائقة ، وتعددت المجلات الخاصة بعلم النفس تماماً وتلك التي تهتم خاصة بالمسائل النفسانية(١) . . .

وفي سنة ١٨٧٨ أنشأ فوندت أول معمل لعلم النفس التجريبي الذي تعددت معامله منذ ذلك الحين وخاصة في ألمانيا وأمريكا(٢) . وعقدت المؤتمرات الدولية لعلم النفس منذ سنة ١٨٨٩ وقامت الأسباب التي دعت إلى عقدها على الصبغة العلمية الاستقلالية التي وصل إليها علم النفس . وأطرى « أوخو روفتز » Ochorowicz منذ سنة ١٨٨١ عقد هذه المؤتمرات وكتب لتأييد رأيه يقول : « لم يعد علم النفس علماً فلسفياً . وهذا نبأ يمكن أن نقول عنه حقاً إنه سر الفلسفة المعاصرة الشائع إذ أن الجميع يسلمون به ، رغم أنه لا يود المناداة به سوى نفر قليل من الفلاسفة » . ثم نجد تدشين هذه الحركة الانفصالية في عنوان القاموس العظيم في « الفلسفة وعلم النفس » الذي نشره « بولدوين » Baldwin سنة ١٩٠١ ، والدروس الأولية في علم النفس والفلسفة لمؤلفه « أبل راي » Abel Rey . وكتب هذا الأخير في مقدمة الطبعة الأولى من كتابه (١٩٠٣) يقول: « تتفق اليوم كل العقول الراجحة على الاعتراف بأن علم النفس علم ، حذوه في ذلك حذو علم الطبيعة وعلم وظائف الأعضاء . فهو يستخدم من المناهج ما لا تقتصر على كونها تفكيراً منطقياً حسب بل هي تؤدي أيضاً إلى يقين حقيق . وإذا كان علم النفس يثير مشكلات فلسفية أكثر مما يثيره غيره من العلوم ، فان هذه المشكلات لا تدخل في نطاقه ، بل هي خاصة بما بعد الطبيعة » .

---

(١) Annales Médico-psychologiques, 1843
Revue Philosophique, 1876 ; Mind, 1876
Philosophische Studien, 1881 ; Zeitschrift für Psychologie
American Journal of Psychology, 1887 ; Psychological Revieu, 1894
Année Psychologique, 1895 ; Archives de Psychologie 1901 ; wournal de Psychologie 1904 ; British Journal of Psychology, 1904 ; etc.

يبلغ الآن عدد مجلات علم النفس العامة والخاصة حوالي المائة . راجع :

Hans Henning. Psychologie der Gegenwart, p. 156-161. Leipzig 1931 (المترجم)

(٢) يوجد في مصر معملان لعلم النفس ، أحدهما في كلية الآداب ، جامعة فؤاد الأول ، والثاني في معهد التربية العالي للمعلمين . (المترجم) .

موضوع علم النفس (١)

من البين أن البحث السيكولوجى ليس غريزة * من الغرائز؛ فلا يمكن مباشرته منذ الولادة. والاستبطان * وسيلته الأساسية ، ولا بد فيه ، كما فى معظم البحوث الأخرى ، من قدر معين من التمرين. ويحسن قبل الشروع فى دراسة تفصيلية أن لا تقوم بمعاينة مبدئية لميدان علم النفس وقد يكون أحسن بيان لموضوع علم النفس بواسطة مثال : فالقارىء إذ يقرأ هذه الكلمات سوف يوافق على أن أموراً عدة تحدث فى ذهنه * .

إنه ينتبه * لما فى الورقة من علامات أو رموز ، يفكر * ويفهم * ، يتخذ اتجاهاً * ذهنياً معينا ، يتذكر * ، وهو تبعاً لذلك إما أن يهتم * أو يمل * وقد تستثار فيه غريزة الاستطلاع، ويحتمل أن يضيق بغموض النص. ثم هو يحاول ويثابر حتى يحس فى نهاية الأمر بالتعب، وكى يتجنب الألم يقام ، ولا يقتصر الأمر على ذلك بل قد يحلم * ؛ وقد ينسى * حلمه بمجرد أن يستيقظ ؛ ومع ذلك يمكن انتشاله من اللاشعور * إذا نوم تنويماً مغناطيسياً * .

كل هذه الأمور أحداث نفسانية وصفناها بلغة علم النفس الجارية . وإنا فى علم النفس نهتم إما بتصنيف مثل هذه الاحداث ووصفها ، وإما بالبحث عن عللها كأن نفسر مثلا لماذا تحدث هذه العملية الخاصة فى هذا الوقت بالذات وعلى هذا النحو دون غيره .

وأول هذين الأمرين ، أعنى التصنيف ، يقوم به علم النفس التقليدى الأكاديمى وهو مفيد إذا مست الحاجة إليه ، ولكنه يفقد من أهميته ليفسح المجال للدراسة التكوينية * التى تبحث عن علل الظواهر النفسية . فالدراسة التكوينية هى التى تسعى إلى إلقاء ضوء على الظواهر التى تتناولها بدراسة أصلها وتاريخها ونموها وترقيها . ذلك أننا إذ نتناول العقل على هذا النحو نجد أن أهمية التاريخ الماضى أعظم بكثير من أهميته فى العمليات الفيزيقية ؛ والواقع إننا لا نفكر ولا نحس أو نتفعل على نحو خالص أو تلقائى ، وذلك أن خاصيـة تفكيرنا * ووجداننا * وفعلنا * ترجع دواماً — أو على الأقل فى جزء منها — إلى الأساليب التى سبق لنا أن فكرنا أو انفعلنا أو فعلنا تبعاً لها .

---

(١) C.K, OGDEN. The A.B.C. of Psychology. 1 ed., 1926 : Pelican Books, 1944. p. 11, - 12

علم النفس التجريبي (١)

علاقة علم النفس التجريبي بعلم النفس العام

نعت علم النفس التجريبي أحياناً بالسيكولوجيا « الجديدة » أو « العلمية » . ولقد تكلموا عنه كما لو كان متميزاً مستقلا عن علم النفس العام القديم الذى لم يكن فيه للتجربة موضع . وهذا فى الواقع خطأ بين إذ التجربة قديمة فى علم النفس قدم أرسطو . كما أن الإنتاج العلمى ممكن « حيث تحول الظروف دون التجربة فى الفلك والجيولوجيا والتاريخ الطبيعى مثلا . فيجب أن ننظر لعلم النفس التجريبى كأحد ضروب كثيرة تدرس بها المشا كل السيكولوجية حيث إنها ليست جميعاً مما يمكن معالجته من الوجه التجريبى . فبعيداً عن أن يكون عـلم النفس التجريبى مستقلا ، نشأ كتهذيب لعلم النفس العام . فدراسة علم النفس العام أساسية للنجاح فى علم النفس التجريبى .

السيكولوجيا كعلم

نحن الآن فى موقف علينا أن ندرك معه أن إمكانية نسبة التعبيرات الفيزيقية (physical) للحالات الذهنية هو السبيل الوحيد لأن نضع السيكولوجيا فى مرتبة العلوم .

والتعبيرات الفيزيقية ، إنما تحصل عن طريقين : الأول بملاحظة السلوك الخارجى للشخص ، والثانى بوصف الشخص لخبرته الداخلية (٢) ، أما عن الأول فلسنا فى حاجة لكثير إيضاح عما هو عليه إذ من الجلى أن السلوك الخارجى طريق للتعبير الفيزيقى . أما الثانى فقد يبدو غريباً لأول وهلة أن نقول إن الكائن حين يصف حالاته الذهنية فهو إنما يوجد منفذاً للتعبير الفيزيقى . ولكن هذا هو حقيقة الأمر التى بدونها يصبح علم النفس مستحيلا . إذ لا يمكن لشخص من الوجهة السيكولوجية أن يلاحظ الحالات الذهنية لشخص آخر ، فهى ملك خاص بصاحبها على نقيض ما يبدو من الملك المشاع للاشياء فى العالم الفزيقى . فحالما يقصد المرء إلى تسجيل حالاته الذهنيـة فانما يعبر عنها « فيزيقيا » . فقد يقول أو يكتب أى أنه يستخدم حركات فيزيقية واضحة وذات معنى لأفراد جنسه

أغراض علم النفس التجريبي

كثيراً ما استخدمت صعوبة التنبوء التى شغلت اهتمامنا أخيراً لتقوية الزعم بأن علم النفس التجريبى شىء مستحيل . ولقد أكد أن الفرد الواحد يتغير فى الأوقات المختلفة ، وأن الأفراد يختلفون فيما بينهم اختلافاً كبيراً جداً تنتفى معه إمكانية التعميم .

ولكن علم النفس التجريبى لا يقصر اهتمامه على المشا كل العامة وحدها كالعتبات الفارقة وتحديد مدى الانتباه وتعيين حدود الذاكرة :

---

(١) Ch. S. Myers. a Text-Book of Experimental Psychology. Cambridge University Press 1928 p.1, 4-5, 9.

مترجم هذا النص الأستاذ ابراهيم أبو غرّة

(٢) انظر « شعور » فى باب التعريفات . (المترجم)

فله بجانب هذا . . . أن يبين كيف تتأثر خاصيات العقل فى فرد بعوامل مختلفة ، وأن يبين مدى وعلة هذا الاختلاف فى الأفراد المختلفين .

فصعوبات التنبؤ إذن لترفع أكثر مما تبخس من قيمة الاهتمام العلمى بهذا الموضوع . كما أن هناك بالمثل صعوبات هامة أو نافلة تعترض تنبؤنا عن الجو أو عن سير التطور حيث العوامل معقدة ومتغيرة كثيراً أيضاً ، على نحو لا نستطيع معه التنبؤ بسير الحوادث فى يقين . فهى غاية كل علم إذن ومن ثم غاية علم النفس التجريبى أن يحلل ما أمكن العوامل التى قد تؤثر فى الظاهرة وأن يحدد النتائج التى تلزم عنها ، متى وجدت ، هذه العوامل .

عـــلم النفس برىء من . . .(١)

أيسر لنا أن ندل المبتدىء على ما ليس علم النفس من أن ندله على ما هو علم النفس . فكما يستحيل أن نقدم تعريفاً بيناً للرياضة لشخص غريب عن المبادىء الأولية لعلاقات العدد ، كذلك يستحيل إيضاح طبيعة علم النفس للطالب العادى عند بدء دراسته له . . ومن أجل أن يكوّن المرء رأيا قاطعا فى ماهية علم النفس عليه أن يعرف جانبا منه . ومن لم يدرس هذا الموضوع تحت إرشاد حاذق ، ليس حقيقاً بأن يعرف علم النفس بالمعنى الدقيق .

إنه لحق من وجه أن هناك قدراً كبيراً من المعلومات تنعت عند العامة بالنفسية ، كما أنه حق من وجه ثان أن كل شخص إنما يعرف أشياء هى من صميم علم النفس ، وإن لم يكن يعلم أنها منه ، وهذان الضربان من الخلط وسوء الفهم يشاركان فى صعوبة المهمة عند الشروع فى الدراسة العلمية لهذا الموضوع . فمن البين إذن أن ما نقوله بشكل عام عن علم النفس يجب أن يكون موجزاً وأن معناه — بالتالى — يحتمل أن يتضح للطالب حين يعود إليه بعد إكمال هذا الكتاب .

ويحسن أن نبدأ بتحذير الطالب من بعض الأخطاء الشائعة فى فهم السيكولوجيا . فمن الوجه الأول بينا أن السيكولوجيا ليست « دراسة النفس* » ، إلا أنها ليست باللانفسية بمعنى إقصاء النفس عن ميدانها . فمن المعروف أن قدراً ملحوظاً من المناقشات السيكولوجية يجرى دون ذكر أى نوع من أنواع النفوس(٢) . ولكن ليس من الممكن فى التحليل العلمى الدقيق أن نتجنب الإشارة إلى شىء يمكن أن يسمى « نفساً » فى حقيقته على الرغم من أنها ليست بأية حال النفس التى قال بها اليونان وحملها عنهم التصور الشعبى ، وعلى الرغم من استحالة دراستها بالفعل .

والسيكولوجيا من وجه ثان تتعلق قليلا بما يسمى بالعلوم الخفية كالتخاطر * والاستشفاف * وأنواع الدجل التى تستخدم غالبا وبنجاح فى سلب الأحمق أمواله .

---

(١) Knight Dunlap. A system of Psychology. New York, Charles Scribner's Sons, 1912. p. 1 - 4. مترجم هذا النص الأستاذ إبرهيم أبو غرّة

(٢) كالتقسيم الثلاثى للنفوس فى الفلسفة اليونانية القديمة (نباتية — حيوانية — ناطقة)المترجم

ولـكن إن لم نؤكد فلن تنكر أنه قد يكون فى صلب هذه الـكتلة من التدجيل ، بعض العناصر ذات الأهمية السيكولوجية، وأن البحث فى هذه المسائل يتعلق فى الواقع لا بالسيكولوجيا مباشرة بل ببحوث تحضير الأرواح(١) . . . .

واللفظ « سيكولوجى » من وجه ثالث يفيد فى المعنى الشعبى نوعا من الرقة والظرف فى التمييز والتكييف . فمثلا تعنى اللحظة السيكولوجية وقتا مناسبا لفعل معين تكون معه اللحظة السابقة له جد مبكرة واللحظة اللاحقة جد متأخرة . .

وإن أى تحليل أو وصف دقيق لخصائص ونواحى نشاط الـكائنات الإنسانية أو أى تظاهر بالدقة يسمى بالسيكولوجى ومن أجل هذا قالوا بالروايات السيكولوجية وما إليها .. والواقع إذ تقر السيكولوجيا — تواضعا — بمعرفة التحليل وضبطه ، عليها أن تنكر أى دعوى أخرى حيث لا يمكن أن تعتبر العلم الوحيد الذى يحلل النشاط والتجربة الإنسانية . فى هذا المعنى الشائع نرى علم وظائف الأعضاء والمنطق والأخلاق أكثر سيكولوجية من علم النفس .

وأخيراً ليس علم النفس دراسة لوظائف الجهاز العصبى . فى الواقع أن جميع النقط الأساسية فى علم النفس يمكن أن تشرح على ما هى عليه من نمو بدون الرجوع إلى الجهاز العصبى أو بالإشارة إلى فكرة غير دقيقة بالغة حد السخف . غير أنه من الحق أن المبادىء والحقائق السيكولوجية يمكن أن توصف فى يسر ويكشف عنها فى سهولة بالرجوع إلى تركيب الدماغ والأعصاب ونواحى نشاطها على النحو الذى يفهمه من توصف له أو من يبحث عنها . وإنا لنعتقد أنه كلما اتفقت النظرة الفيزيولوجية مع واقع الظواهر البنائية والوظيفية ، سهل تقدم علم النفس .

اقرأ فى العدد القادم

تمهيد لدراسة نفسية المراهق فى مصر	للدكتور يوسف مراد
دراسات إكلينيكية فى الطب النفسى الجسمى	للدكتور مصطفى زيور
الأسس النفسية للعمل الإنسانى	للأستاذ أبو حديد الشافعى
نفسية الشعب المصرى من أغانيه	للأستاذ محمد محمود الصياد

(١) يجب التمييز الدقيق بين « روحانى » psychic ، psychical وبين سيكولوجى أو نفسانى psychological . وإنه لمن المؤسف أن أحد اللفظين الأولين لم يستخدم فيما يدل عليه علم النفس .